منطقة محررة

▪ نجم والي

جريمة قتل في قطار النوبل السريع

الرواية القصيرة "صمت البحر" التي تُرجمت بسرعة إلى لغات عديدة واشتهرت عالمياً، تنتمي إلى تلك الأعمال التي كان من غير الممكن صدورها باسم مؤلفيها الحقيقيين. عام ١٩٤٢ جعل الكاتب الفرنسي الذي كان يعيش في باريس جيان مارسيل برولير الرواية تُطبع في جينيف تحت الاسم المستعار فيركور ثم ليتم شحنها بعد ذلك وبصورة سرية إلى باريس المحتلة في حينه من قبل الألمان. تلك كانت الطريقة الوحيدة بالنسبة للكاتب المقاوم لنشر روايته في باريس. الكتاب هذا هو الكتاب الوحيد المعروف لبورلير (فيركور) والذي يُعتبر العمل الأدبي الأساسي للمقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي في حينه. في أزمان الديكتاتوريات يقف الكتّاب الناقدون للسلطة أمام الخيار: أما الصمت والذهاب إلى المنفى. وإذا قرروا البقاء ومواصلة الكتابة، فعليهم الكتابة في هذه الحالة تحت اسم مستعار، وإلا عليهم أن يموتوا. أو في أفضل الأحوال تنتظرهم زنزانة السجن. أيضاً فترة مكارثي في الولايات المتحدة الأميركية لسنوات الخمسينات هي مثال مشابه. كتّاب عديدون كان عليهم البحث عن كاتب "شبح" بديل (غوستر ايتر) لكتبهم. الروائي الأميركي المشهور فيليب روث وثق تلك الفترة بشكل جيد في روايته "الكاتب الشبح" (١٩٧٩ في الإنكليزية الأميركية) والتي صورها وودي ألن ببطولته للسينما.

ولا حالة من هذه الحالات لها تتطابق مع النقاش الذي يدور منذ أسابيع في الرأي العام الألماني والمشهد الثقافي بصورة خاصة. أعرف، أن هناك من يقول، عن أي شيء تتحدث؟ هنا لا يتعلق الموضوع بشيء يمكن تصنيفه بالأدب. "الأدب" أصبح ماضيا للأسف في ألمانيا. هنا الموضوع له علاقة بتهديم الأدب، انحدار الأخلاق وانحطاط الفكر عموماً. ألمانيا لم تعد بلد الشعراء والمفكرين، كما قيل عنها دائماً. نحن نجد أنفسنا في فترة المزورين والجشعين. بالأمس كانت الكاتبة الشابة هيغيمان التي لطشت روايتها من الإنترنيت، بالأمس كان وزير الدفاع السابق تسو غوتينبيرغ الذي انتحل أطروحته للدكتوراه، واليوم رئيس القسم الثقافي لإحدى الصحف المهمة في ألمانيا، الذي ينشر رواية بوليسية باسم مستعار: بيير يوهانسين، اسم سويدي في الحقيقة. لكن لماذا الاسم سويدي، ولماذا الإدعاء بأن الرواية مترجمة عن السويدية، يسأل القارئ البريء؟ لماذا ليست رواية بوليسية ألمانية أو إيطالية؟ الجواب بسيط جداً، لأن ألمانيا سوق رائجة للروايات البوليسية السويدية، إذا استثنينا روايات الأميركية دونا ليون التي تدور أحداثها في البندقية التي تعيش فيها المؤلفة منذ سنوات. حتى كتابة هذه السطور هناك ٨ روايات بوليسية من العشرين كتاباً على قائمة البيستسيلير التي تصدرها مجلة شبيغيل كل يوم اثنين. ومن يعرف ذلك أفضل من رئيس قسم ثقافي في صحيفة ألمانية ودكتور في الأدب السويدي.

الفضيحة التي أثارتها الرواية ليس فقط بسبب نشرها تحت اسم سويدي مستعار، بل أكثر بسبب شخصية الضحية في الرواية. بالنسبة للصحافة الألمانية أن مواصفات الضحية كريستوف ماير الذي يُقتل بضربة مسحاة على رأسه وتأكل جثته الطيور، تنطبق على شخصية رئيس قسم ثقافي في الصحيفة الألمانية رقم واحد، والمنافس لمؤلف الرواية كما إنه كان رئيس عمله قبل عقدين. لكن في حمى النقاش الدائر ضاع الميت الحقيقي في هذه المذبحة الثقافية الذي هو ليس غير صاحب النوبل، الروائي التركي أورهان باموك. "الرواية البوليسية الأفضل والأكثر دهاء التي لم أقرأ مثلها منذ زمن طويل"، هكذا كتب باموك على الغلاف. رغم أن الجميع يعرف، أن باموك لا يعرف اللغة السويدية (اللغة المفترضة للرواية) ولا اللغة الألمانية (اللغة الأصلية للرواية). كيف وصل الأمر بأن يشترك هو بالذات في أورجيا استغباء القارئ واحتقار الأدب هذه وبصورة فعالة؟ وحدها عائلة باموك عائلة غنية. هذا يعني إنه لم يفعل ذلك بسبب الفلوس. من أجل ماذا فعل ذلك صاحب نوبل إذن؟ هل كان ساذجاً وفعل ذلك باسم الصداقة، لأن صداقة حميمة ربطته بالصحفي مؤلف الرواية كما هو معروف؟ هل تم ذلك بدون علمه أو فعل ذلك رداً لجميل قام به له صديقه العاشق السويدي؟ لكن رداً للجميل عن ماذا، يسأل المرء في هذه اللحظة؟ بتقشير بصله والكشف عن ماضيه النازي (مذكراته نُشرت بعنوان: تقشير البصل) أساء غونتر غراس للقب النوبل. عن طريقه كلمات مديحه المطبوعة على غلاف الرواية البوليسية التي لم يقرأها أصلاً فعل باموك المثل. والصديق المؤلف ودار النشر ساعدا على وقوع الجريمة بنشر كلمات المديح! على أية حال هناك كما قرأنا قبل أيام، طبعة جديدة للرواية بالاسم الحقيقي وبدون الاسم المستعار. الاقتراح اللائق في هذه الحالة هو أن تحمل الرواية عنواناً جديداً أيضاً. عنوان سويدي جداً: جريمة قتل في نوبل أكسبريس. وفي ما يخص المضمون وما سيحدث بعدها، فنحن بانتظار المفاجأة!

استطلاع ثقافي

الرواية العراقية.. البحث عن خارطة جديدة لما بعد التغيير

يتجه العالم في بناء ثقافته نحو الرواية كونها واحدة من مرتكزات التخيل التي تتيح للإنسان إن يكون ذاتاً مركزة على الكون والعالم والمحيط.. حتى باتت عالما قائما بذاته يمكن من خلاله تأشير واقع البلد والمجتمع من عاداته وتقاليده ومؤشراته وحتى واقعه السياسي .. ومر العراق بتجارب عديدة في السرد وانتقل من مرحلة تجريبية إلى أخرى لإعلان ثوبه وإعطاء صبغته ودلالته ويكون صورته التي تدل على منتجه إلا أن الظروف التي مر بها السارد العراقي وخاصة في الربع الأخير من القرن الماضي ثم السنوات العشر من القرن الجديد لم تجعل هناك لحظوة التقاط الأنفاس لكي تظهر خارطة جديدة يمكن لها أن تؤشر أن هذه الرواية عراقية، كما يقول البعض فيها، يقول آخرون إن المرحلة قد بدأت لان الحرية الآن ربما تفضي إلى صنع خارطة عراقية لها..وما بين هذه المتغيرات طرحنا تساؤلا عن السرد العراقي ما بعد عام 2003، وتحدثنا عن الرواية هل تكون لها خارطة جديدة؟ هل يمكن أن يشير إلى تحول جذري في البنية السردية العراقية أم هناك إحباط من عدم الاستفادة من المتغيرات التي تحصل على الساحة السياسية لان كل متغير في المجتمعات يصنع الوقائع السياسية؟

□المدى الثقافي

جاسم عاصي:

نسبية الفرص

الروائي والناقد جاسم عاصي يرى إن للرواية الصادرة بعد التغيير منحيين، الأول أنها استغلت الفرصة النسبية من حرية النشر فقدمت ما هو خزين في درج المكتبة الخاصة، وهذا خضع لمستويين أيضا، وهو عرض ما كُتب آنذاك، ثم ما حملته الذاكرة من صور، ويرى في المنحنى الثاني انه استجاب للمستجد من التغيرات الايجابية والسلبية ، وقدم نتاجه على أنه واحد من المرايا التي تواكب وتعكس مجريات المتغيّر . وفي هذا الحراك الروائي ، نقف على مستجدات في النظرة إلى الرواية على أنها جنس قادر على استيعاب أكبر قدر من الصور والمشاهد، والمتبلور في صراعات ذات مستويات متباينة.. ويضيف أن كتاباً أكفاء جمعتهم الهجرة من البلد ساهموا في عكس معارفهم في هذا الجنس، فكتبوا نصوصا روائية مهمة، اشتملت على اجتراحات في تنضيد الأحداث وبناء الشخصية، والتعامل بحذر فني مع كل ما هو في حاضنة النص . والأسماء كثيرة يصعب وضع جرد لها. فـ (نجم والي) قدم نصوصا مهمة على صعيد التاريخ، وله في هذا أسسه وطرقه في التعبير عنها. وكذلك في ما كتبه (أسعد الهلالي) من روايات تُعد مهمة على صعيد علاقة الرواية بالتاريخ. ومثل ذلك قدم (حسن الفرطوسي) روايتين مهمتين عالجت واحدة منها ظروف الأسر في مخيم رفحاء، وكيفية العمل على الأسس الأسطورية في الكتابة، والأخرى عن الواقع العراقي وظاهرة الهجرة عن الوطن. كما قدم (علي لفتة سعيد) روايته مواسم الإسطرلاب، وهي نص استوعب أحداثا ما قبل التغيير ولكن بأسلوب غلب عليه أسلوب ـ الأسطرة ـ في الكتابة الروائية. ولعل (علي عباس خفيف) له اجتراحاته في كتابة الرواية فكانت روايته (حي استيقظت من الحلم) خير دليل على قدرته في كتابة الرواية، وإمكاناته في جمع شتات الذاكرة. كذلك الكاتبان الشابان (ضياء الجبيلي ومرتضى كَزار) اللذان يتميزان عن أقرانهما من الشباب بالجرأة في اقتحام المسكوت عنه، وشجاعتهما في الدخول إلى ملفات التاريخ . ولكل منهما طريقته في ذلك . يشاطرهما الكاتب الشاب (ضياء الخالدي) الذي فاجأنا مبكرا في قدرته على الكتابة السردية في القصة. ولعل (حسن عبد الرزاق) من الذين انتبهنا لهم مبكرا ونحن ندرس مستوى ما يكتب في القصة القصيرة، توجها بالكتابة إلى حقل الرواية. ولا نخفي ما للكاتب (علي السباعي) من إمكانية أرى أنه يهيئ لها لكتابة رواية.. ويصيف عاصي انه لا أستطيع الإغفال عن عدم ذكر اسمين مهمين في حقل الرواية، وهما (نصيف فلك) وإمكانيته في تحويل اليومي والمعاش إلى مراتب الفن الرفيعة. و(حميد الربيعي) وقدرته على المزج بين ما هو واقعي وأسطوري، وما هو واقعي وتاريخي. كذلك (نزار عبد الستار) الذي لم تأخذه الصحافة إلى رصيفها واتساعها، فأنتج رواية تُعد مهمة في تاريخنا ما بعد التغيير. ولكي لا تكون مفضلين هذا على ذاك، فثمة نتاجات مهمة لـ (لطفيّة الدليمي) ولـ (نضال القاضي) و(لؤي حمزة عباس) و(جابر خليفة جابر) سواء في المبنى أو المعنى. وأرى أن مجال الاستفتاء له حدود، لعليّ أخذت القصوى منها. نكتفي بما تقدم ونعتذر من الآخرين الذين لم يرد ذكرهم، فهم كبار في ضميرنا وذاكرتنا.

عمار أحمد:

هيمنة السائد الثمانيني

ويقول القاص والمروائي عمار أحمد كان النظام السابق يريد للثقافة ان سير الثقافة في اتجاه واحد سردا وشعرا وإعلاما وفنونا، لكن لم يتمكن من ذلك والدليل منجز المبدعين الكبار كمحمد خضير، ومحمود جنداري، و(جماعة تضاد) في منتصف الثمانينيات.. ويضيف هناك كتابات مبدعة أرخت لمرحلة مهمة جدا من مراحل ارتقاء الفن السردي القصصي العراقي والعربي..ويشير الى ان المنحدرات التي رافقت السردية والرواية خصوصا فإن ذلك لا يحسب على الفن السردي العراقي عامة، بقدر ما يحسب على منجزيه أنفسهم، وفي كل مرحلة من مراحل الأدَبَ العربي كانت هناك نصوص ضعيفة وهزيلة همها الفكري ضيق، وأدواتها الفنية فقيرة حد العدم. ولكن دائما ما تتشكل العلامات الفارقة لرقي أي أدب من الجهود الفردية الواعية بمنجزها على مستوييه الشكلي والمضموني. وبحسب أحمد فانه لا يمكن أن نطلبَ من شعب أن يكون أدباؤه كلهم في مرتبة واحدة، وأن تكون أعمالهم كلهم/ كلها، في مستوى واحد، فحتى أعمال الأديب الذي نتفق على أهميته، تتفاوت جودة وضعفا، جمالا وقبحا، لذا أقول: إن السرد العراقي الآن بخير ، وسيظل ، وربما كون العراق منبع شعر وفن تشكيلي، جعل من السرد في مواقع ثانوية..ويشير الى ان ملامح تشكيل تيار جديد للرواية اعراقية او السردية العراقية فان ذلك لا تتضح ملامحه إلا بعد وقت طويل قد يستغرق عقودا، والمدة التي أعقبت الاحتلال قصيرة نسبيا في الوقت ايضا كما يقول المرواتي عمار فان ملامح تشكل التيار المغاير للسائد التي سادت في ثمانينيات القرن الماضي وتسعينياته ما زالت مهيمنة، وأكثر الأسماء الرائدة، ما زال يتصدر التحديث، لأنه فهم حقيقة مهمة هي أن لا تغيير جذريا، ولا حداثة تؤسس لسرد خاص ما لم يدرك الساردون حقيقة التغاير حد القطيعة أحيانا مع السائد من الإشكال وأن التابو الأخطر، والأصعب خرقا هو تابو الأجناس السردية القارة وكأنها وصلت مرتبة التقديس.

زيد الشهيد:

هامش الحرية

زيد الشهيد عدّ الرواية كخطاب تدويني أخذ له مدى واسعاً بعد التغيير في ٢٠٠٣، حيث وجد الكاتب يتلقى هامشا من الحرية، فراح ينشر ما كان كتبه قبل التغيير ويخشى نشره، في حين انطلق آخرون يكتبون الرواية، شعوراً منهم، بأنها الجنس الأدبي الموارب الأبواب لما يرغبون أن يدونوا، إضافة إلى استشراف الزمن على انه زمن الرواية أكثر من الأجناس الأخرى، حيث التوجه إليها لم يقتصر على الساحة الأدبية العراقية إنما العربية عموما... ويضيف انه من اليقين أنهم محقون في ذلك، إذ الواقع الأدبي العربي بحاجة لهذا الجنس المهم.. ويشير إلى انه إذا أجرينا مسحاً موضوعياً للرواية والروائيين نجد أن ثمة قصورا واضحا لما يوازيها ويتعقبهم؛ وأقصد بذلك النقاد والحركة النقدية. فمن يتطلع ويرصد سيكتشف بيسر أن مسار الحركة النقدية ضعيفاً وباهتا بعيداً عن الدراسة البحثية والتحليل الموضوعي.. ويشير الى انه من الطبيعي أن نقول أن لا قراءة بدون مقروء، والمقروء لا يجد بيئة خصبة ينمو فيها ويتألق إن لم توظف له الرعاية والعناية والاهتمام والدراسة الجادة من اجل التطوير.

محسن الخفاجي:

التغيير والصدمة

القاص والروائي محسن الخفاجي يرى أن التغيير الذي حدث في ٢٠٠٣ كان عملية احتلال تسببت في قتل الآلاف وتهجير الآلاف وتدمير البنية ما أدى إلى ما يشبه الصدمة لم يصحُ منها العقل العراقي حتى الآن، وقد تسبب ذلك في انهيار منظومة الثقافة وشيوع الثقافة المسطحة.. ويرى أيضا أن هذا الواقع جعل من الآخرين يتجهون نحو السكوت في حين اختفى كثيرون في الوقت الذي ظهرت فيه أصوات جديدة لم يكن لها مشروع روائي .. ويوضح الخفاجي أن السرد ومنه الرواية عمل يحتاج إلى مجتمع صناعي متطور والى حرية التعامل مع الآراء وتشريح الحياة الإنسانية حتى الآن لم تكن هناك أعمال يمكن التعويل عليها وساهم النشر السهل بطرد الأعمال الجيدة من المنافسة ومع هذا يمكن الإشادة ببعض الأصوات التي تنحت في حجر مثل مرتضى كزار وناظم العبيدي وضياء الجبيلي، وهناك أعمال قصصية لأسعد اللامي تستحق الاهتمام.. وبحسب الخفاجي فإن القصة والرواية قد تعرضتا إلى تدمير، ولكنه يعود ليؤكد أن ما حدث في العراق يحتاج إلى أعمال روائية كبيرة لم تظهر بعد.

خضير فليح:

الرواية والأمراض

في حين يرى القاص والروائي خضير فليح الزيدي أن الرواية العراقية ما بعد التغيير وما قبله تستحق التأمل لرؤيتها من الداخل، لان ما حصل بعد التغيير ليس مكملا لما قبل التغيير.. ويضيف أن الرواية العراقية الجديدة كونها تمثل قمة السرد العراقي لها أمراضها واعطابها التي يمكن الوقوف عندها وتفحصها بشكل راصد دقيق.. ولكن المشكلة التي يراها الزيدي هي أن الباحثين في الحقل النقدي العراقي تغيبوا أو تراجعوا أو أهملوا عملية المراقبة النقدية المطلوبة منهم بل أن الأكاديميين الذين يفترض أنهم من أوائل من يصاحبون الحركات التغييرية ابقوا على ما هم عليه من كلاسيكيات النقد، وقد اهتمت المدرسة الأكاديمية النقدية في الجامعة العراقية بموضوعة الشعر الكلاسيكي وأهملت عن عمد السرديات الحديثة والرواية الحديثة لان معظم الكوادر هم كوادر من الأجيال الكلاسيكية التي لا تعرف الكثير من متغيرات السرد الحديث ولفت إلى أن الرواية العراقية الناهضة ورغم الكم الهائل تعاني ارتباك اللغة وما زال البحث المتواصل عن أفضل السبل للوقوف على منهجية لغة الرواية العراقية.. كذلك أن سهولة الطباعة الخارجية إضافة إلى استسهال كتابة السرديات بالاعتماد على مرجعية القراءة والثقافة الموروثة في تتبع الرواية العالمية التي غدت اليوم صناعة ممنهجة حالها حال السينما وصناعة الفيلم، فهي بحاجة إلى فترة إعداد وتقصي وثائقها ومخطوطاتها وتاريخها المسكوت عنه ..الرواية غدت كتابا معرفيا مدعما بالمعلوماتية عالية المستوى التي تضخه ميديا عالمية كبيرة.

ناظم محمد العبيدي:

الرواية والسياسة

الروائي ناظم محمد العبيدي قال انه لا يمكن الحديث عن المنعطفات التي حدثت في الرواية العراقية دون الإحاطة – ولو على نحو عام – بملابسات الوضع السياسي ، ويمكن القول أن بداية التحول العميق كانت بعد عام ٩١ ، حين أصبح الشأن العراقي يخضع لتأثيرات الدول الخارجية وسياساتها، بحكم القرارات التي جاءت بعد تحرير الكويت لعل أبرزها الحصار الاقتصادي الذي ترك آثاراً عميقة في الحياة العامة، فضلاً عن الشلل الذي أصاب النظام بسبب عزلته الخارجية وهزيمته العسكرية، وعكست النصوص الروائية التي ظهرت في تلك الحقبة رؤى مأساوية تستذكر الحرب بمرارة وتنعى الوطن ، ولو استعرضنا نموذجاً من هذه الأعمال لوجدنا أن هاجس الاغتراب والرغبة في الانسلاخ عن المكان الراهن أبرز ما يمكن تأشيره نقدياً ، ويمكن الإشارة إلى رواية امرأة القارورة لسليم مطر التي صدرت في الخارج، الأمر الذي أتاح للكاتب حرية الحديث عن ماضي الحرب في الثمانينيات، لكنها أكدت جانباً مهماً سيظهر في روايات لاحقة حتى بعد ٢٠٠٣، إنه العودة الى تاريخ العراق، حيث الرغبة المتنامية في الإمساك بصورة وطن تآكلته الحروب والقوى الخارجية، وانتهك وجوده التاريخي لحسابات سياسية ستعلن عن نفسها بجلاء مع تلاحق الأحداث، وما يمكن رصده هنا هو ظاهرة التمزق والشتات في الذات العراقية، ليس لدى المبدعين فحسب بل تعدى ذلك إلى الحشود الكبيرة التي غادرت العراق بعد التغيير، لأن حلم الاستقرار والخلاص تضاءل كثيراً مع اتضاح الصورة، وعوضاً عن عودة اللاجئين من كتاب السرد انضافت إليهم أعداد مضاعفة غصت بهم المنافي.. ويمضي العبيدي بقوله انه كان للنصوص التي صدرت أن تعبر عن انكساراتهم الإنسانية وهم يتنقلون في المنافي، والحديث عن الرواية بعد ٢٠٠٣، لا بد أن يقف كثيراً أمام الإشكالية التي أشرنا إليها وتناميها منذ عام ٩١، ولا تخلو الكثير من النصوص السردية التي تصدر بين الحين والآخر من تعقيدات الوضع العام والتباسه، والهجرة من الحاضر إلى الماضي بكل حقبه للإمساك بأرضية فيها قدر من الثبات يسمح بالكتابة ، لأن من طبيعة السرد أن يقترب من الحياة ، أية حياة وهذا ما لا يسمح به واقع أريد له بسبب دوافع سياسية واقتصادية أن يظل قلقاً يعاني الفوضى.

كاظم حسوني:

غياب الخارطة

القاص كاظم حسوني يجد أن لا خارطة واضحة في السردية العراقية والرواية العراقية تحديدا لأنه يقول لا يمكن النظر إلى بعض الأعمال القليلة التي تناولت أحداث العراق. هذه استثناءات نحن نتكلم عن ظاهرة أدبية أو كتابة جديدة توازي التحولات الكبرى وتترجم الحياة بصورها لمختلفة.. ويضيف انه في اعتقادي لم اقرأ أدبا ما بعد التغيير يمتلك ملامح خاصة وفيه معالجات وأدوات مبتكرة تحاكي الحدث، ربما حصل إلى حد ما على مستوى الشعر لان القصيدة كما تعلم وليدة لحظتها – أعني في حديثي الرواية – صحيح هناك بعض الأعمال الروائية والقصص لكنها لا تمثل الزلزال العراقي الذي عصف بكل شيء، واعتقد أن هذه القضية طبيعية لان الأعمال الروائية عالية القيمة الإبداعية تحتاج إلى زمن طويل، وهذا ما تأكد من تجارب الشعوب، والأمثلة كثيرة لا حصر لها. (الدون الهادئ) كتبت بعد زمن طويل من انتهاء الحرب الأهلية الروسية، (الحرب والسلم) أيضا تناولت حرب نابليون وغيرها من الأعمال الروائية خاصة، وتمنى حسوني أن نقرأ أدبا يحمل ملامح المرحلة العراقية الجديدة في وقت قريب.